Z i `¦ ~{ m¦IZ

سمياه "ربيع" تيمنا , فقد جاءهما على كهولة متاخرة ونثر مجيئه في صحراء حياتهما رذاذا نديا من امان عاطرات . . . فامسى الاب اكثر رقة ودعة , وهو الذي ما مارس من الحياة الا خشنها قولا وفعلا . . . وتعزت الام به عن كل ما حرمته في صباها البكر من متع الحياة بما فيها من امومة مبكرة او علاقة زوجية متكاملة كانت نتيجة ما تيسر , اذ انها واتتهاعلى عمر لا مجال فيه للاختيار . فهاتين العينين الزرقاوين ـ كعيني جده ـ تكمن فيهما جنتها وتختصران عمرها كله : ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

كان حضور ربيع الى هذه الحياة في فترة ضبابية شديدة القتامة , فالحرب اللبنانية قد طوت بضعة اعوام قاسيات من عمرها واطلقت تسميات اجتماعية وسياسية جديدة , فصنفت الناس حسب اهواء امراء الحرب , وحتى حسب اهواء وزاويزها احيانا . نتج عن ذلك ان صنف ابو ربيع بين المستضعفين المرذولين في محيطه . إلا ان ربيعا كان ينمو محاطا بحب ورعاية كبيرين عزلتاه عن كل ما هو شاذ . . . وكانت تنمو معه احلام واماني والديه . . .

قبل ان يعي الكلام كناه ابوه "أبو الياس" , وقلبه مفعم بكل ما تحمله هذه الكنية من معاني الامل بالمستقبل .

ـ مش حلو . . . اسم قديم . . .

ـ بلا كترة حكي ! ! . . . لا اقبل إلا ب"ابو الياس ". . . إللي مش عاجبو يدق راسو بالحيط . . .

وبالغت الام بالاحتفاء بربيع . . . حالها كحال مثيلاتها في مثل ظروفها. لقد كان اخر ثمرة في رحم قارب النضوب . . . وعرفت كل المزارات والكنائس في المحيط والجوار شموعا مضاءة على نية ربيع , حتى الله يخليه ويرد عنو عيون الحاسدين .

ويوم برز له اول سن طافت صحون السنونية على كل انحاء المخيم , وشاركها فرحتها القلة المتبقية من ابناء مخيمها القديم , كما الوافدون الجدد من قرى تعيسة انتكبت وجاءت تتقاسم وإياهم قسوة الظروف المستجدة .

ـ يوم عرسي ما تكلفت مثل ما عملت " المرمورة " اليوم ! ! . . .

ـ والله لولا الاحوال الصعبة بالبلد لعملت أوزي بدل القمح ! ! . . .

ويوم عمادته كادت تدعوه عرسا .

ـ شو خليت للفرحات الجايه ؟ ! . . .

فترمقه بنظرة عتب , وتتمتم بعض كلام دون ان يغير اعتراضه من واقع الحال شيئا . وللحقيقة فهو لم يكن ابدا جادا فيما يقول , وما اعتراضاته إلا من باب الزكزكات لاثارتها , ففي اعماقه فرح طفولي ورضى عامر , يرفض ان يعبر عنهما ولو ان عينيه تفضحانه , فما هذه القسوة المصطنعة في الظاهر إلا غطاء رقيقا لفيض من مشاعر عامرة بالرقة والحنان تابى كبرياء الرجولة ـ حسب مقاييسه ـ ان تفلت لها العقال .

كانت خطوات ربيع الاولى سمفونية عذبة انكسر لحنها , فقد واكبها غصة في قلب "ابو ربيع" . . كبرت مع الايام لتصبح هما ثقيلا يربض فوق صدره ويمنع عنه متعة الانتشاء بهذه الخطوات . . . فهو مستضعف مرذول في محيطه لا لذنب اقترفه بل لانه ينتمي الى فئة محسوبة من الاعداء . واصطاد الانتهازيون في الماء العكر . كل يحاول ان يستغل ضعف موقفه للاستفادة الشخصية منه. كان يبذل مما ادخره من جني عمره في بلاد الاغتراب ليسكت نباح الطامعين من حوله . ولطالما ضاقت مرموره بهذه التصرفات

ـ اللي بتعرف ديتو اقتلو . . .

ـ نحنا هون رهائن خلينا نلحق اهلنا بالمنطقة الاخرى

ـ ومين قللك إنو الوضع هناك افضل ؟ ! . . . الكخ اخو ال. . . على الاقل نحنا هون عارفين ما ينتظرنا , بينما هم هناك كل يوم مفاجأة جديده . . . طولي بالك ! ! . . . مع الايام يملون ويتركونا بحالنا . . . الوضع صعب علينا وعلى كل الناس , مرحله وبتمر. . .

إلا ان المرحلة لم تمر قبل ان ينفذ صبر" ابو ربيع ". إذ صارت المطالبة اوقح وامتدت الى ابعد من طلب المال . . . لقد طلب منه بما يشبه الامر التبرع بدمه . . . هاله الامر ولكنه نفذه على مضض , ثم تكرر الطلب وكان في اعماقه يحس به اهانة لانسانيته . . . كل ما حصل في السابق مقدور عليه اما هذا فلا ! ! . . . وخاف ان تمـّنع ان يؤخذ دمه كله . . . فقرر الهرب . . . وعاد الى اغترابه يشقى وحيدا تاركا ربيع وامه واخته في المخيم. فالمضايقات لا تطال الاطفال والنساء كثيرا , او لربما طاقتهم على الاحتمال اكبر .

يسواهم ما يسوى غيرهم في ذلك المخيم الصغير الذي لم يتبق من اهله إلا قلة صبرت وغالبت , لا لتغليب موقف أو تشبث بالمكان او اي حكمة اخرى ,.بل عن ضيق حيلة , فليس لهم مكان اخر يلجاون اليه , فظلوا هناك مفشّة خلق لضعاف النفوس من ابناء محيطهم , ومحط اتهامات من ابناء جلدتهم .

لم يطل الامر بربيع وامه واخته بعد غياب الاب حتى اضطروا الى النزوح الى القسم الاخر من العاصمة أثر موجعة عنف عمياء . وتدبروا امرهم بمعونة من سبقوهم من الاقارب والاصحاب ليجدوا لهم مسكنا في احدى البنايات التي لم تكتمل بعد , والتي سميت فيما بعد ببناية "عكر" للمهجرين . وتقاسمت العائلات السكن في تلك البناية , فكانت كل ثلاث او اربع عائلات تقتسم طابقا من الطوابق التسعة التي تتألف منها البناية . وكان حظ ام ربيع وعائلتها الطابق الثاني تقاسمته مع عائلات ثلاث اخر .

ثم كان حزيران من عام ٨٢ . . .

حزيران اخر محى بقسوته وعمق ماساته ما تبقى من حزيران النكسة . . . لم توفر فيه "اسرائيل" سلاحا جويا او بحريا او بريا الا واستعملته لاذلال المدينة وناسها . . . ولم تكتف بما صبته من غضب لاهب . بل اتبعت حربها العسكرية بحرب نفسية كان وقعها في القلوب اشد وادهى , فالمناشير التي كانت تصبها على رؤوس الاهالي كانت تفعل في النفوس اضعاف اضعاف ما تفعله القذائف . ولم يرحمها ظلم ذوو القربى فقطعوا عنها الماء والنور والدواء . . . وتواطأعلى ضعفائها بعض امراء الحرب من ضعاف النفوس فاستأثروا لانفسهم واقاربهم ومحاسيبهم بما يتيسر من خبز وماء ووقود في حين تعاني الاكثرية الامرين لتأمين جرعة الماء لطفل او مريض او مسن

كان ابو ربيع قد عاد من غربته وقد جمع ما يعينه على تحمل اعباء الحياة .

ـ كافيها الله , مستورة والحمد لله . . . العمر بيخلص والشغل ما بيخلص . . . بدنا نلحق العشاش قبل ما يطّيرو . . .

يريد ان يستقر ويتمتع بربيع واخته يكبران امام عينيه ويناديه "ابو الياس " كيلا ينسى . وكانت عودته في الثالث من حزيران , عشية بدء الهجوم الناعب على بيروت . فشكر ربه لانه وصل قبل إقفال المطار ليكون الى جانب اسرته في هذه الايام العصيبة .

سره المكان الجديد الذي استقرت به العائلة . فالبناية ضخمة قوية العمدان . . . عشرين قنيفة لا تؤثر فيها . . . ويضرب بيده بقوة تاكيدا لكلامه . . . اي طيران لا يزحزح هذا العمود . . . المكان احسن من اي ملجا من ملاجئ البنايات المجاورة . ومن ناحية ثانية اليهود"بناديق" يهمهم الراي العام لا يمكن ان يضربوا هذي البناية ! ! . . . انظر المستشفى من شرق . . . وبيت العميد من غرب . . . وكذا من جنوب !! . . . لا , لا . . . لا يمكن ان تستهدف اسرائيل هذه البناية . . . شو قلة بنايات تضربها ؟ ! . . .

وكان ربيع اثناءها يدرج لاهيا عن كل خطر فقد سرت في عروقه طمأنينة نقلتها له امه بتماسكها ورباطة جأشها . فلم تكن لتثيره ما يسمعه من اصوات القذائف ما دام حضنها حاضر لهدهدته ودرء الاذى

عنه . كما انها من جهتها حاولت اقصى جهدها ان تلبي كل طلباته , حتى بعد ان اقفرت المدينة من كل متاجرها , كانت تنتهز فرصة بعض هدؤ فتقصد محلات إدريس التي كانت تفتح ابوابها لساعات معدودة عندما تسمح الحالة الامنية بذلك . ولشد ما كان ينغص عيشها يوم يكون القصف شديدا ومتواصلا لا تتمكن معه من الوصول الى هناك فتتنهد وتقول : يقبرني نام زعلان . . . ما في ببسي ولا بوظه اليوم . .

ـ مجنونه هاي المرى ! ! . . . وكأن الدنيا بالف خير ! ! . . .

ـ خليك ساند العمود حبيبي . . . إذ زحت عـّنو بيسقط السقف على راسنا ! ! . . .

ولا تثيره سخريتها , بل يبتسم في سره ويعجب لهدؤ اعصابها . . . ويتساءل في سره : من اين لها هذه القدرة على تجاوز الحاضر ؟ ! ! . . . كيف تستطيع ان تعيش يومها عاديا؟ . . . ترحب بساكني الطبقات العليا الذين جاؤا يحتمون عندهم . . . تعد لهم القهوة إذا تيسر . . . تحّول انتباه ربيع واخته عما يجري في الخارج . . . تقص عليهما قصص الشاطر حسن وعلي بابا والاربعين حرامي . . . تشتت انتباه ربيع عندما يصر على الخروج الى الشرفة . . . تعوضه عما حرمه من العاب بصنع مركب او صاروخ ورقي . . . ولا تنسى أن تتفقد مؤنة السهرة من شمع وبطاريات وحبوب اسبرين .

ـ كلك قد شوال طحين , من وين جبت هالقدره ؟ ! ! . .

ويهزها اطراؤه المغلف بسخرية محببة , فهو الغزل الوحيد الذي يجيد

ـ من وجودك يا سندي . . .

* * * * * * * * *

غريب امر ست الدنيا هذه ! ! . . . تمنح حنانها ودفئها , كالامومة , بلا حساب . . . تنفعل شوارعها ومقاهيها بالحدث اليوم لتعود وتنفعل بضده غدا . . . تتبنى كل الملتجئين اليها , تؤاسي غربة الغريب وتؤنس وحشة المتوحد كما انها تجاري فجور المترفين بالحرير والخمور . . . حتى بحرها يعتريه هدوء حزين ايام الانكسار والحزن , وغضب ساخط عند الشدائد. . . تتبنى كل عريق واصيل وبديع , ولا تتنكر لصعلوك او لقيط . . .

كانت بيروت قد استضافت كل ابناء الضاحية والمخيمات والميليشيات من مختلف التنظيمات . . . الناس في كل مكان , يملؤون المكاتب والبنوك والمساجد والكنائس والمدارس ومداخل البنايات . . . فامست كخلية نحل اعتدى عليها صبي اهوج فضعضع سكونها . . . وما شكت بيروت . . . وما ضاقت باهلها وضيوفها , بل فتحت لهم صدرها وحاولت ان تضمهم الى جوفها علها تستطيع رد الاذى والشر عنهم حتى كهوفها تخلت عن لياليها الحمراء لتحتضن من قصدها لاجئا. . . إلا ان"اسرائيل" كانت قد استعارت اذني سليمان , فكانت تعرف مخابئ المقاتلين مخبأ مخبأ . وعيونها مبثوثة في كل مكان . . عند كل منعطف , في زاوية اي مقهى , على حدود كل رصيف وفوق كل مزبلة . . . ولقد كشف هذا الاجتياح عن امور اذل من الهزيمة . . . فكم من متستر باثواب المقاومة تعرى ليبدي نتنا وحقارة وفحيحا دنيئا ؟ ! ! . . . وكم من المدعين وطنية مبالغ فيها خلعوا براقعهم وبان من تحتها نقع الافاعي ؟ ! ! . . . ولا يزال ينكر سكان شارع الحمراء ورواد مقهى "الهورس شو" على وجه الخصوص , رجل كث الشعر واللحية , رث الثياب , قذر الهيئة , يكلم نفسه بصوت عال , يتفكه اهل الحي ورواد المقهى معه كواحد من صعاليك الشارع وينادونه متهكمين أبو الريش ابو الريش . . . خلع ريشه الزائف وراح يتقدم الزاحفين المعتدين على المدينة . . . بمثل هؤلاء حصت دولة صهيون على البيروتيين انفاسهم وتعرفت على كل خطوة خطاها هذا القائد او ذاك , والمقاتلون من جهتهم توقعوا مثل هذا الامر واحتاطوا له , فباتوا يحاذرون البقاء في مكان ثابت .

عجبا كيف تدور الدوائر كمثل لمح البصر ؟ ! ! . . . لقد شهدت بيروت صورا كانت اوجع من الحصار وقسوته واعمق ذلا من الهزيمة ومرارتها . كانت بيروت تحزن لرؤية مقاتليها يفرون من وكر الى اخر , ولشد ما

الامها رؤية الناس يعوفون بيوتهم ويركضون مهرولين إذا ما وصل الى علمهم ان "ابو فلان" زار هذه البناية أو البناية المجاورة . . . ولطالما شوهد كبار الاباء وحتى الاب الاكبر ابو الجميع , مكوما على نفسه في المقعد الخلفي لسيارة ما, متوقفة في مراب مهجور من مارب شارع الحمراء , وكانه ما كان يوما سيدا تطيعه مئات الالاف ! ! . . .

لم تكن بناية عكر الا واحدة من هذه البنايات التي كان يلجأ اليها بعض المقاتلين وقوادهم من حين لاخر , ولقد تميزت عن غيرها في ان اهلها لم يكونوا ليهجروها عند مجيء المقاتلين اليها , فلعلهم كانوا قدريين اكثر من سواهم , او لعل موقع البناء وصلابته بعث في صدورهم اطمئنانا كاذبا . ويبدو ان هذه الحقيقة لم ترق" لدولة صهيون", فكان لهم حساب عسير , كان لهم السادس من اب . . .

كان الحصار قد طوى شهره الثالث وبيروت لا تزال تمشي درب جلجلتها وحيدة ما مسحت مجدلية جبينها المنهك ولا واساها سمعان بصمت . . .

والسادس من اب تميز تلك السنة بشمس كئيبة وسماء مغبرة غير ما نعهده في سماوات اب من شموس مكتنزة وسماوات ضاحكة . . . وهواؤه محمل برطوبة لزجة تزيد من ثقل الهموم على اعصاب المحاصرين المنتظرين بما يشبه الياس قولة حق وانصاف بمدينتهم . ولعل ما اظهرته بيروت من تجلد , وما برز فيها من ملامح تضامن عفوي صادق , يؤهلها عن حق للقب عروس المدائن .

والسادس من اب يوم هادئ إذا ما قيس بغيره من الايام السوداء التي سبقته . يوم يكاد يخلو من ازيز طائراتهم الناعبة . . . يوم انتهزها البيروتيون فرصة للخلود الى شيء من السكينة وإلتقاط الانفاس . . . فمنهم من ترك ملجأه ليتفقد شوارع مدينته , واخرون قصدوا اقارب وجيران للاطمئنان على احوالهم , وبعض بدأ يستعد ليهيء نفسه وعائلته لليلة قاسية متوقعه .

ولم تمهلم الطائرات طويلا , فعند الساعة الثانية وبضع دقائق سمع اهالي بيروت عموما وسكان منطقة الصنائع خصوصا طلعة جديدة للطيران , قالت الاذاعة انه حوم حول حديقة الصنائع . . . دقائق معدودة وسمع دوي مكتوم لقذيفتين متتاليتين شعر معه سكان البنايات وكأن هزة ارضية ضربتهم . . . تناثرت بضع اوان من اماكنها وتارجح سرير تحت جسد يغتصب قيلولة قلقة . . . واصابت رجفة غريبة اطراف بعض لاعبي الورق . . . وجاء صوت المذيعة ليعلن أن الطيران الحربي الاسرائيلي قصف محيط حديقة الصنايع . . .

لا . . . لم يكن قصفا . . . كانت قذيفة واحدة يتيمة . . . ولم يكن على حديقة الصنايع . . . كانت شيئا جديدا لم يعرف له مثيل من قبل . اخترق قلب تلك البناية التي لجأ اليها منذ حوالي سنتين او ثلاث بعض الذين قذفتهم المنطقة الاخرى لا لذنب جنوه , بل لان بعض امراء الحرب ضاق بلهجتهم المميزة . . .
وصححت الاذاعة معلوماتها , وسمت البناية المقصوفة بالاسم , فهب الناس خصوصا من له اقارب او اصدقاء في تلك البناية , فتّلقت بعضهم سيارة مفخخة كانت تنتظرهم على مقربة امتار مما كان قبل دقائق بناية . . .

لم يكن هنالك بناية ما . . . لم يكن هنالك شظايا موزعة هنا وهناك . . . لم تكن البنايات المحيطة القديمة مصابة باي أذى . . . وكان المستشفى ما زال يربض في مكانه . . . كان وكأن البناء علبة كرتون فارغة سحقت تحت قدمين قويتين فاطبقت جوانبها بعضا فوق بعض . . .

مئة وسبعون شخصا يسترقون بعض هدؤ . . . ربما كان بعضهم يرتشف فنجان قهوة . . . او يسترق كبوة قلقة . . . او ربما منشغل في مشادة كلامية تافهة مع زوجته . . .

مئة وسبعون شخصا بينهم ربيع وامه وابوه واخته وعمته , لم يتعرف عليهم إلا من بقايا حلق في اذن ام تحتضن طفلا في حوالي الثالثة من العمر والى جانبهما طفلة اكبر بقليل . . .

مئة وسبعون شخصا رقم صغير في قائمة الضحايا , إلا ان ماساتهم تكمن في انهم كانوا فئران

تجربة في معامل التكنولوجيا العسكرية , تماما كمثل ما كانت حال هيروشيما في مثل ذلك اليوم من اب قبل ثلاثين ونيف من الاعوام .

نجمه(٢٨ـ ٥ ـ٩٢)